Features of Identity in Hani al-Raheb's Narrative I Have Drwan a Line in the Sands

Dr. Talal Hassan*

(Received 29 / 12 / 2019. Accepted 9 / 2 / 2020)

□ ABSTRACT □

In the Arabic novel, the issue of identity stands as one apparent problematicality, providing that the concept of identity is unstable. Many a factor interfere to identify it as a term exactly as the basic facotrs do with this probelmaticality: history, inheritance, economy, religion, mythology, ideology, etc. Accordingly, this piece of reseach commences by defining identity, then refers to the changes it undergoes specially the grand unstabilities sweaping the homeland the effects of which have soon reflected apparent changes and emerging offshoots to the identity that have been absent or potential prior to these severe struggles. Afterwards, it handles numerous narrative characters and analyzes the miscellaneous characteristics of their identities. It concludes with the fact that live personae could change their identities, belongingness or attitudes when encountering material or immaterial pressures. Whereas, the imaginative and fictitious have extremely maintained their original identities. To reiterate, it transpires that time, place and ecology play an influencial role on identities of these artistic characters. However, anyone who is not subject to such changes would keep on constant alienation and complaint.

Keywords: Identity; Drawn; Sands; Oil States; Balqees; Caliph; Shahrayar.

***Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities; University of Tishreen, Lattakia, Syria**

ملامح الهوية في رواية "رسمت خطاً في الرمال " لهاني الراهب

د.طلال محمد حسن*

(تاريخ الإيداع 29 / 12 / 2019. قبل للنشر في 9 / 2 / 2020)

ملخّص

ملامح الهوية في رواية " رسمت خطاً في الرمال لـ "هاني الراهب" بحث يسعى إلى تحديد مفهوم الهوية، ويبيّن ظهور هذه الإشكالية في الرواية العربية ، ويفصل أكثر في الشخصيات الروائية التي أبدعها الدكتور هاني الراهب في روايته موضوع الدراسة، موضحاً المكونات الأساس لهذه الهويات، حيث يبرز المكون التاريخي، والاقتصادي، والفكري، والأسطوري، و يستحضر الكاتب شخصيات تاريخية معروفة مثل : عمر بن الخطاب، والحجاج بن يوسف الثقفي، وبلقيس، و شخصيات أخرى وجدها في التراث العربي الشعبي والأسطوري مثل: شهرزاد، وشهريار، والخليفة ، وعيسى بن هشام ، وأفقزاد. ويقدم كذلك شخصيات معاصرة، مثل الرئيس الأمريكي، والحكام المعاصرين الذين يراهم امتداداً لخلفاء عاشوا منذ أكثر من ألف عام، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن الصراعات الحادة و الأزمات الكبرى التي يتعرض لها الوطن تساعد في ظهور هويات فرعية كانت كامنة أو غائبة قبل ذلك، وهذا ما ظهر جلياً في رواية هاني الراهب التي ارتبط زمانها ومكانها باحتلال الكويت ، ثمّ بهزيمة العراق والغزو الأمريكي للمنطقة ، وما نتج عنه من تغير وتبدل في الوعي سرعان ما أدى إلى تشظي الهوية الوطنية و القومية.

الكلمات المفتاحية: الهوية، رسمت خطاً، عربي محمدين، نفيطية.

* **مدرس ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية.**

مقدّمة:

إن أيّ متابعٍ جدّيٍ للحياة التي تعيشها بلادنا ابتداءً من ستينيات القرن الماضي وحتى أيامنا هذه، لا بدّ أن يلحظ الضغوط الهائلة التي مورست علينا، ولا بدَّ أن يلحظ أيضاً كيف انعكست هذه الحدّة في وعينا، وفي آلية تفكيرنا، فدفعتنا إلى ردات فعل متباينةٍ، تعكس تشتتنا بين ماضويين وحداثيين، وتوزعنا بين منغلقين ومنفتحين على الآخرين، عارفين وجاهلين، بين مستسلمين ومقاومين.. إلخ.

ولقد تجلّى هذا التباين الحاد في مختلف أشكال النشاط الإنساني، وخاصة في الآداب والفنون. وتبرز الهويَّة كقضيَّة إشكاليَّة أساس في الكتابة السرديَّة، وبشكل أكثر وضوحاً في الأعمال التي تكتب بعد الهزات الكبرى، والصراعات الحادة التي يتعرض لها الوطن وأبناؤه، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم إيديولوجيّة، وتزداد حساسيّة هذه الإشكالية وأهميتها عندما تبدأ بالظهور أشكال جديدة للهوية، أشكال كانت غائبة أو كامنة في الماضي، ولكن الهزة العنيفة أبرزتها على السطح. وهي في الأغلب هويات فرعيَّة محدودة الأفق.

في مثل هذه الحالة لا يعود طرح مسألة الهوية قضيَّة ترف فكري، أو قضيَّة غريبة مستوردة من الخارج، بل يصبح تحدياً فكرياً حقيقياً لكل من يحمل حساً ووعياً حقيقيين، إذاً كيف للإبداع أن يساهم في تمزيق الهويّة والهجرة باتجاه المجهول؟ وكيف له أن يقاوم تشويهها وتحويلها إلى هويّة مشبعة بالجهل والحماقة والتوحش والحقد والجنون.

يسعى البحث إلى تحديد مفهوم الهويّة ومكوناتها الأساس، ثم ينتقل إلى الشخصيات الروائية التي قدّمها د.هاني الراهب في رواية ((رسمت خطاً في الرمال)) بهوياتها المتعددة المختلفة حيث يتداخل التاريخ بالتراث، وبالواقع، وبالزمان وبالمكان، وينعكس هذا كله تشظياً هائلاً في الهويّة العربيَّة.

أهميَّة البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من كونه يدرس إشكاليَّة تكاد تغيب الدراسات عنها، وهي إشكالية الهويّة في الرواية التي تقارب الفنتازيا بحيث تبدو إشكالية الهوية أكثر ظهوراً بسبب تداخل الأمكنة والأزمنة، وهذه ظاهرة واضحة في أكثر من عمل روائي لهاني الراهب وبشكل لافت في روايتي: " ألف ليلة وليلتان "، و "رسمت خطاً في الرمال" حيث يصعب تحديد هذه الهوية التي تبدو أقرب إلى التشظي والتشويه، إذ لا يمكن أن تتطابق مع صورة مألوفة لهويّة محددة الملامح. ومن هنا تبرز أهمية البحث في الهويّة كإشكالية كبرى في الرواية موضوع البحث.

منهجيَّة البحث:

إن طبيعة البحث تفرض علينا الإفادة من مناهج الدراسة الأدبيَّة المتعددة، فهو ونظراً لطبيعة الهوية ولمكوناتها الأساس، لا بد أن يفيد من المنهج التاريخي لأن المؤشرات التاريخيَّة والتراثية حاضرة وبقوَّة في تشكيل الهويّة، وسيفيد أيضاً من منهج التحليل النفسي للأدب في أثناء عملية سبر أغوار الشخصيات الروائية، ولن يغفل المنهج الاجتماعي أيضاً لما له من أهميَّة في تشكيل الوعي والإحساس به.

مفهوم الهويّة:

تعرّف الهويَّة بأنها ((إحساس بالذات ينشأ حينما يبدأ الطفل بالتميّز عن والديه وعائلته، ويأخذ موقِعَهُ في المجتمع. فهي شعور شخصٍ بمن هو، وما هي كليَّة الأشياء الأكثر أهميَّة بالنسبة إليه))[1].

إذا كان التعريف السابق هو التعريف الأكثر تبسيطاً، وهو تعريف اصطلاحي، فإنه لا بدّ للبحث عن الدلالة اللغوية من العودة إلى المعاجم العربيَّة القديمة. والأمر المفاجئ في هذه العودة هو أن المعاجم العربيَّة تخلو من الإشارة إلى هذه الدلالة، وتقتصر على ذكر معانٍ بعيدة جداً، فمثلاً جاء في كتاب "أساس البلاغة للزمخشري" في مادة "هوى" أكثر من دلالة منها:

((الميل: هويه يهواه، وهو هوٍ، وهي هويَّة. وكذلك هوي من الجبل، وهوت الدلو في البئر بمعنى سقط، وكذلك بمعنى صعد. هويَ الجبلَ صعده، والناقة تهوي براكبها أي تسرع به، والهاوية ما بين جبلين، وهوى الرجل مات))[2].

ولكن يمكن أن نصادف هذه المفردة في أحيان قليلة لدى بعض الفلاسفة و الشعراء المتصوفين، وهي تعني عندهم الجوهر كما لدى ابن عربي حيث يقول:

هويَّة الحق أسراري وأعضائي فليس الكون موجود سوى الله

وكذلك قوله:

لا تنظـروني غيـره إننـي هويَّـة الحـق بلا سـترِ

أما الحلاج فيقول:

هويَّـة لك فـي لائيتـي أبـداً كُلّي عن الكلّ تلبيسٌ بوجهين

على حين يشير أبو حيان التوحيدي إلى أن الهويَّة وجود الذات.

يقول: ((فإن شكَّ إنسان في هويّة الشيء أي في وجود ذاته لم يبحث عن شيء آخر من أمره (...) وفي تراث الفلاسفة العرب نلحظ استخداماً آخر للفظ حيث نقرأ عن ابن رشد ((إن بعض الأشياء تقال هويَّة لأنها جواهر، وبعضها لأنها تأثيرات، وبعضها لأنها سبيل إلى الجوهر، أو إلى مضاف أو لأنها عدم وكيفيات، أو فاعلة أو مولدة جوهراً، أو شيء آخر، مما يقال. إنَّ في الجوهر، أو لأنها سالبة لشيء من هذه الأغراض أو الجوهر))[3].

ويضيف ((الهوية تدلُّ على إنيَّة الشيء وحقيقته" فإنا إذ قلنا إن الشيء : دللنا على حقيقته، وإذا قلنا: إنه ليس، دللنا على أنه ليس بحق بل هو كذب))[4].

ثم يتابع: ((..... فقيل الهوية من الهو، كما تشتق الإنسانية من الإنسان، والرجولة من الرجل))[5].

أما في مصطلحات الفلسفة عند العرب فقد ورد أن: ((هويَّة الشيء وعينيته، ووحدته وتشخُّصه وخصوصيته ووجوده المنفرد كلٌّ واحدٌ، وقولنا: إنه هو إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك))[6].

---

[1]– **هارلمبس وهولبورن،... سوشيولوجيا الثقافة والهويَّة، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للنشر والتوزيع، ص13.**

[2]– **الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، د.ط، مادة هوى.**

[3]– **جيهامي، د. جيرار، موسوعة مصطلحات ابن رشد الفيلسوف، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 2000، بيروت، ص1205.**

[4]– **المصدر نفسه، ص1206.**

[5]– **المصدر نفسه، ص1207.**

[6]– **جيهامي، د. جيرار، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1998، بيروت، ص848.**

إن في المقبوسات السابقة إشارة صريحة إلى أن الهوية تتضمن الجوهر والخصوصيَّة والتفرد والحقيقة، سواء أكان الأمر تأكيداً لها أم نفياً. وهذه كلها تكاد تطابق الدلالات الاصطلاحية المعاصرة لهذه اللفظة.

أما المصادر الأساس التي تستمد الهوية حضورها ووجودها منها فهي القوميَّة والجنس والطبقة.

ويمكن ملاحظة كيف أن الدراسات القائمة على الصراعات الطبقيَّة كانت تفترض دائماً أن الهويَّة الأساس هي الهويَّة الطبقيَّة لأنها الأكثر حضوراً، وهم بذلك كانوا يقللون من أهميّة الهويات الأخرى كالهويَّة العرقيَّة أو الجنسيَّة حيث عدّوها من ضمن المفهومات الحديثة للهويَّة.

أما في النظريات الفكرية الحديثة فقد طرحت اتجاهات مختلفة في موضوع الهوية عندما أشارت إلى التغييرات التي تطرأ باستمرار على الهوية، وعلى التباينات التي يمكن أن نجدها في الهويَّة الواحدة حيث تتعدد مظاهر الهويات المختلفة.

أما في أيامنا فقد نشط كثيرون من الناس من أجل خلق هوياتهم الخاصة بهم، حيث لم تعد الهويَّة المحددة مسبقاً لمجموعة اجتماعية بعينها، هي فقط ما يريدون الارتباط به، فقد أصبح لدى الأفراد خيارات كثيرة يمكن أن تحدد طبيعة انتمائهم، بمعنى آخر لم يعد هناك استقرار وثبات لمعنى الهويَّة، بل أخذت دلالة هذه اللفظة تميل إلى التشظي والتجزئة[1].

في حين تؤكد النظريات الحديثة لعلم النفس وعلم الاجتماع أن هوية الفرد ((هي في الحقيقة متعددة، وربما سائلة، حيث إنها تتكون عبر التجربة، وتترسخ برموز لغويَّة، والأفراد حيث يطورون هوياتهم إنما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم، وتلك الموجودة في المجتمع ككل))[2].

ويرى دوركهايم أن "الوعي الجماعي له تأثير قويّ جدّاً على الناس في مجتمعات ما قبل الصناعة، وهذه المجتمعات تميزت بالتضامن الآلي، فهم يشعرون بمعنى التضامن لأن كلَّ فرد منهم يشبه الآخر (....) إن الوعي الجمعي لا يتغير بين الأجيال، إنما على عكس ذلك يقوم برط الأجيال اللاحقة بجيل آخر... والناس يجب أن يخضعوا لثقافة مجتمعهم إذا أرادوا تجنب العقوبة " [3].

هذا يعني "أن الثقافة المشتركة بما تتضمنه من لغة ورموز أخرى كالعقائد والأعلام والفنون والآداب كلها تعمل كضابط أو كموجه للسلوك"[4].

ويستلزم الاغتراب الإحساس بالإقصاء عن الفعل وعن الآخرين وهؤلاء الذين يشعرون بالاغتراب يكونون غير قادرين على التعبير بحريّة عن إنسانيّتهم الضروريّة باستخدام طاقاتهم الخلاقة في العمل، ولذلك لا يجدون لهم مكاناً في عالمهم، ولا حضوراً بهوياتهم، وكثيراً ما نصادف هذا النمط من الشخصيات في الأعمال الأدبيّة، وفي روايات هاني الراهب تحديداً.

يشير بول ريكور في كتابه: "الذاكرة، التاريخ، النسيان"، إلى أن ((كتاب التاريخ يجعل من نفسه وثيقة مفتوحة أمام سلسلة من التسجيلات الجديدة التي تخضع المعرفة لعملية مراجعة لا تتوقف (....) من هنا يمكن القول مع ميشيل

[1]- ينظر: هارلمبس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، د.ت، ص14.

[2]- المصدر السابق، ص20.

[3]- المصدر السابق، ص23.

[4]- المصدر السابق، ص14.

دوسيرتو عن تمثيل كتابي، وكذلك نستطيع أن نتكلم عن تمثيل أدبي من أجل الإشارة إلى ضمّ الآداب إلى المعايير العلميَّة... فبفضل هذا التسجيل النهائي يعلن التاريخ عن انتمائه إلى ميدان الأدب ›› [1].

ما أريد أن أشير إليه هنا هو العلاقة الواضحة بين الحدث والأدب، أو لنقل بين الواقع الحقيقي والواقع الفني، وهو ما يبدو جلياً في أعمال هاني الراهب على الرغم من الطابع الغرائبي اللافت الذي قدّمه في روايتيه:" ألف ليلة وليلتان"، و "رسمتُ خطاً في الرمال" ‹‹ يمثل السرد استراتيجيّة خطابيَّة أساسية بالنسبة للذات في التمثيل وصياغة هويتها عن طريق تأكيد اختلافها مع صور الآخر، (وهو) اختلاف يأخذ أنماطاً متعددة من العلاقات حيث شكل ديالكتيك السيد والعبد، وهندسة المركز والهامش في الحكاية الكولونيالية، وشكل السلطة والتابع في حكاية السلطة، وشكل الألفة (الأنا / المحلي) والغرابة (الآخر الأجنبي) في الحكاية الحضاريَّة››[2].

يكاد المقبوس السابق أن يحدّد أشكالاً متعددة للهوية، أو لنقل المكونات الأساس للهوية والتي غالباً ما تنتج من صراع اقتصادي أو اجتماعي أو حضاري، وسنحاول تفصيل أنماط الهويَّة هذه في الرواية كجنس أدبي مميّز هنا ينبغي أن نشير إلى وجود اختلاف جوهري بين قصديتين ‹‹ إحداهما وهي قصدية الخيال تتجه نحو الوهمي، القصصي، غير الحقيقي، وغير الواقعي، والممكن واليوتوبي. والأخرى وهي قصدية الذاكرة، تتجه نحو الحقيقة السابقة الواقع السابق، وتشكّل السبقيَّة السمة الزمنية بامتياز للشيء المتذكر، للمتذكر بوصفه كذلك ››[3].

وبما أنّ الإقناع يشكل هماً أساساً للكاتب الذي يسعى لأن نصدّقه فإنه يبدأ البحث من أجل اختيار الحبكات وتعبئة الحجج المحتملة داخل مسيرة القصة عبر الصور والأسلوب والفكر، واستثمار الوسائل البلاغية في عملية صياغة القصَّة. ويأتي ردّ القارئ عبر المواقف المختلفة الخاصة التي يقوم بها عند تلقيه النصّ، وتُعدُّ الشخصيات أبرز المرتكزات التي توضح قصد المؤلف وهو من أجل مزيد من الإقناع يستند في كثير من الأحيان – إلى شخصيات تمتلك هوية واضحة في ذهن المتلقي قد تكون هوية مستمدّة من التاريخ أو من التراث أو من الواقع[4].

وهكذا فإن السّرد الروائي يمكن أن يشكل إجابات عن التساؤلات المرتبطة بالهوية كمفهوم. مثل: هل هي مفهوم ثابت، ضيِّق مغلق على ذاته؟ أم هو منفتح على الآخر بقدر انفتاحه على الذات؟ وكيف تتكون الخصوصيَّة؟ أو هل يهددها الانفتاح أم يغنيها؟

إجابات السرد الروائي يمتزج في بعضها الخيالي مع الواقعي، ولكن معظمها يتخذ من وقائع الحياة المعيشة واشتباك الثقافات أساساً، وهي تقدم إجابات غير قطعيَّة[5].

وتنقل الدكتورة ماجدة حمود رأياً لزكي نجيب محمود مفاده أن الهوية ‹‹ لا تُصان إلّا بأن يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه. أي في العقيدة وفي اللغة وفي الأدب، وفي كثير من النظم الاجتماعي" [6].

---

[1] – ريكور، بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص354–355.

[2] – أبو عزّة، محمد، سرديات ثقافية، من سياسة الهوية إلى سياسة الاختلاف ، منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، منشورات ضفاف، ط أولى، 2014، ص16.

[3] – ريكور، بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص34.

[4] – ينظر المرجع السابق نفسه، ص357.

[5] – ينظر: الشبيبي، جميل، إشكالية الهوية في الرواية العراقية المعاصرة، صحيفة المثقف، العدد 2596، تاريخ 2019/4/6.

[6] – حمود. د. ماجدة، إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 398، مارس 2013، ، ص15.

أما إدوار الخراط فيرى ((أن الهوية الوطنيَّة باعتبارها مقوماً له دلالته في مذهب إنساني جديد، ليست جوهراً ميتافيزيقياً أبدياً قبلياً، وليست معطى محدداً مسبقاً، ليست تراثاً محتوماً لا حول عنه، مقذوفاً من الماضي، ومنيعاً لا يؤثر فيه البعد الزمني ولا المتغيرات التاريخيَّة. بل هي واقع دينامي تاريخي زمني لجسدٍ تُعادُ صياغته وتشكيله وتنميته (...) والهوية الوطنية لا تكتسب مقدرتها على البقاء فضلاً عن مصداقيتها إلّا بمقدرتها على التطور والتفاعل مع المعطيات الاجتماعية والسياسية والثقافية التاريخية، إلّا بوعيها بهذه الخصيصة من المرونة والانفتاح والاستجابة النقدية)) [1].

يُعَدّ هاني الراهب (1939–2000م) أحد أهم الروائيين العرب في القرن العشرين حيث قدَّم خلال مسيرته الإبداعيَّة اثنتي عشرة رواية، ولقد كانت البداية رواية "المهزمون" عام 1961،واختتم نتاجه الروائي برواية "خضراء كالحقول" عام 2000، إضافة إلى ثلاث قصص هي: المدينة الفاضلة 1969، جرائم دونكيشوت 1978، وخضراء كالعلقم 2000م.

منذ أن بدأ هاني الراهب الكتابة ظهرت عليه ملامح القلق، ولكنه ليس كأي قلق إنه قلق المبدعين، لقد كان مسكوناً بهاجس التغيير في أسلوب الكتابة الروائية، مؤكداً على الأسئلة الحياتية التي تتضمنها أسئلة الوجود والحياة الحاضرة، وكذلك أسئلة المستقبل، وهو في كلّ ذلك يؤكد على الخصوصيَّة، ولنقل على الهوية الأدبيَّة لذلك جاءت رواياته عالماً مستقلاً قائماً بذاته في النسيج الروائي السوري، وترك علامات بارزة معاصرة شكلاً ومضموناً في مسيرة ما تحكيه رواياته[2].

لقد كان الكاتب يحاول الانقلاب على الزمان والمكان والضرورة وصولاً إلى الحريَّة، والزمان والمكان الراهن يحاولان الانقلاب على هاني الراهب وصولاً إلى تهميشه وإبادته، ولذلك كانت العلاقة بينه والواقع العربي علاقة خصومة "وكان كلٌّ منهما يحاول إقصاء الآخر وإزاحته" كما يقول محمد أبو معتوق[3].

ونحن نعرف حياة الكاتب والمعاناة الكبيرة التي عايشها في أمكنة متعددة وأزمنة متعددة، ولكن انكسار أحلامه الاجتماعيّة والرّوحيَّة لم يمنعه من متابعة الإبداع والنجاح اللافت في تحقيق حلمه الإبداعي حيث امتلك القدرة على شدّ القارئ وأخذه إلى مسافات بعيدة، تارة من غرائزه، وتارة أخرى من وعيه لمتابعة القراءة بحيث لا يحسّ بالضيق أمام حضور طروحاته السياسية والاجتماعية ضمن النص لأنه يقدمها ممتزجة مع ما هو روحي وحسّيّ وبناء معماري تخيلي لافت مليء إثارة وفتنة وجمالاً. من هنا ينظر كثير من النقاد إلى هاني الراهب على أساس أن ملامح سرد الحداثة الأولى إنما تشكلت على يديه، بوعيه وبقلمه، ولقد كانت إحدى معالم الواقعية ومحاكاة الحياة، تلك السمة التي وسمت السرد العربي بمجمله، غير أنَّ هاني الراهب تجاوز ذلك موظِّفاً طاقة الخيال الإبداعي في حقل اللغة وحقل الصورة، حيث تكاد تظهر سمة الفنتازي والتخييلي واضحة في كلّ صفحة من صفحات أعماله ولكنه مع ذلك بقي مرتبطاً بالواقع، وشديد الانقلاب عليه في آن. ويتجلى ذلك بشكل أوضح من خلال رؤيته للحاضر، وللتاريخ المعاصر وكأنه استمرار للماضي وليس تطوراً عنه. وهذا الأمر يشكل البنية الأساس في روايته موضوع الدراسة ((رسمت خطاً في الرمال)) التي شكلت ملمحاً جديداً في نتاجه الروائي حيث يجمع فيها خليطاً عجيباً من الأمكنة والأزمنة والحيوات: الأرض، والسماء، الجن والإنس، الماضي والحاضر، الجلاد والضحيّة، عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندراني،

[1]– ينظر المرجع السابق، ص5 وما بعدها.

[2]– ينظر، خرتش، فيصل: البحث عن مدينة فاضلة، الملحق الثقافي، ملحق أسبوعي يصدر كل ثلاثاء عن جريدة الثورة، دمشق، العدد703، تاريخ 2010/8/3.

[3]– أبو معتوق، محمد: تجليات النص وانكسارات الشخص، الملحق الثقافي، العدد703، تاريخ 2010/8/3، ص8.

شهرزاد وشهريار، دينازاد وأفقزاد، والملكة بلقيس، والحجاج بن يوسف الثقفي والخليفة عمر، والرئيس فكس ومحمد عربي محمدين، وغيرهم وغيرهم برمزيتهم وتقمصاتهم المعاصرة، وهذا كله يترافق مع الحدث الأساس وهو احتلال الكويت وتحريرها، واحتلال العراق وما جرّه من ويلات على المنطقة.

يشير الكاتب صراحة إلى أن: عنوان الرواية مأخوذ من خطاب ألقاه جورج بوش قبل يومين أو ثلاثة أيام من بدء تدمير العراق يقول فيه ((لقد رسمتُ خطاً في الرمال وأريد لهذا الخط أن ينحفر عميقاً ويمتدّ حتى الأناضول والخليج العربي))[1].

إن كلام هاني الراهب يؤكد الارتباط الوثيق بين الزمان والمكان في الرواية حيث ((يكمل أحدهما الآخر وكأنهما وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، وهما معاً يشكلان فضاءً واحداً هو الفضاء الزمكاني، وإذا كان الزمان مرتبطاً بالإدراك النفسي فإن المكان يرتبط دائماً بالإدراك الحسي))[2].

تعلن الرواية عن المكان الروائي منذ البداية، حيث تدور أحداثها في العراق ودول الخليج العربي التي تطفو على بحيرة من النفط، وقد قسمها الغزاة إلى دويلات مشتتة حيث يسهل استغلالها، أما الزمان ((فهو خيط وهمي مسيطر على التصورات والأنشطة والأفكار الروائية المتتابعة))[3].

ومن هنا تولد عملية ترتيب عناصر التشويق والاستمرار وسيرورة الأحداث الروائية المتتابعة[4].

أضف إلى ذلك أن كثيرين من النقاد صنفوا العمل ضمن ما يسمى "الأدب الفنتازي" ((ولكن هذا الأمر لا يعني تضمينه حقائق غير معروفة، بل وسائل غير معروفة في وعي تلك الحقائق والتعامل معها، إنه سبر أغوار الواقع بوسائل غير واقعية تحرر الإنسان من نمطيته وسكونه، وتنبهه لما ينتجه محيطه من آثار تبدو إنسانية، وتلغي وجوده العقلي في الحياة))[5].

وحتى يكون دخولنا إلى البناء الروائي في "رسمت خطاً في الرمال" دخولاً سليماً لا بدّ من النظرة الجدية إلى الجوانب المرتبطة بالعنوانات، أو بعتبات النصّ، آخذين بالحسبان ((تحول مفهوم العتبة بالتدريج من اعتباره نصياً عرضياً ليصبح بناء نصياً له مضامينه الشكليَّة ووظائفه الدلاليَّة التي تمكنه من إدارة جدلٍ خلاق بينه وبين أبنية أخرى لها نفس الدرجة من التعقيد))[6].

ونحن نعرف أن العتبة هي مدخل البيت، أو مدخل كل شيء وهي أول ما يصادفنا فيقع عليه بصرنا وبصيرتنا.

في رواية "رسمت خطاً في الرمال" لا توجد مقدمة ولا إهداء ولا نهاية حيث تختتم الرواية المكتوبة بعبارة "النهاية مؤقتاً"، فهل قصد الراهب من ذلك الإشارة إلى أنه يقدم لنا مشاهد تضيع فيها الضوابط المنطقية وتتداخل فيها الأمكنة والأزمنة فيُفتقد التسلسل المنهجي. من هنا لا حاجة للمقدمة ولا للإهداء ولا للخاتمة ، إنه يقول لنا : هذا أنتم ، وهذا زمنكم، وهذه هويتكم .

---

[1] – حوار مع الدكتور هاني الراهب، مجلة دراسات اشتراكية، عدد خاص (الرواية السورية المعاصرة)، العددان 182-183، 2000م، ص377، حاوره بسام سفر وأيمن الحسن.

[2] – قاسم، سيزا: انهيار الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2004، ص106.

[3] – مرتاض، عبد الملك: في نظرية الرواية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1998، ص179.

[4] – ينظر: مبروك، د. مراد عبد الرحمن: بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1998، ص10.

[5] – الصالح، د. نضال: النزوع الأسطوري في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص21.

[6] – أشبهون، عبد الملك: عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، ط1، 2009، ص27.

يفترض في العنوان الرئيس أن يشكل عاملاً مساعداً للقارئ في أثناء دخوله إلى عالم النصّ، فهو أول شيء تلحظه عيناه حيث يتصدر الغلاف الخارجي للكتاب، إنه أقرب إلى أن يكون دعوة ضمنيَّة للدخول إلى عالم مبني بالحروف. لذلك يعدُّ العنوان العتبة الأولى من عتبات النصّ، ويفترض أن يعلن عن قصديته. وفي أحيان كثيرة يشي باستراتيجيَّة المؤلف، الفكريَّة والإبداعيَّة، بما يتضمنه من تكثيف وإيحاء بالغين[1].

إن العنوان الخارجي، أو لنقل العتبة الأولى هنا "رسمت خطاً في الرمال"، جملة مقتطفة من كلام للرئيس الأمريكي – كما ذكر سابقاً– وهي توحي بعدة أمور: أولها السمة الواقعية للرواية، وثانيها أن صوته هو الأقوى وهو المحدد وليس أدل على ذلك مما ورد في خطاب الرئيس بوش فحرف التحقيق قد، وضمير الفاعل في رسمت، وأخيراً الفعل أريد وفاعله ضمير المتكلم أنا، وثالثها الحالة التي وصل إليها العرب، ورابعها حضارة الرمال المستحدثة، أو لنستخدم لغة الكاتب عبد الرحمن منيف "مدن الملح" في مجتمع لا يملك شيئاً سوى النفط.

إن هذا العنوان يلمح إلى ثنائية طرفها الأول الفعل والقوة والحضور، وطرفها الثاني الغياب والضعف والتهميش والاستسلام والتبعية المطلقة.

يبني الروائي هاني الراهب عمله على شكل لوحات متعددة، في كلّ لوحة بطل يسرد لنا حياته ودوره فيضيء ملامح من هويته، أو من هوية غيره، وبتضافر هذه اللوحات المشهدية يبدو لنا النص كياناً واضحاً محدداً، إنها إحدى عشرة لوحة متباينة الحجم، تبدأ بـ "سيدنا الدولار" وتنتهي بـ "أفقزاد" وإذا ما استعرضنا أسماء الأبطال يظهر لنا بوضوح انتماؤهم إلى أزمنة متعددة، وأمكنة متعددة. ففي اللوحة المشهدية الثانية يطل علينا أبو الفتح الاسكندراني قادماً من عالم المقامات، باحثاً عن العدالة المفقودة، عن عمر بن الخطاب، ولست أدري إذا كان المراد هنا المقارنة بين زمنين: زمن القوة وزمن الضعف، زمن العدالة وزمن الظلم، زمن الحاكم الحاكم وزمن الحاكم المحكوم زمن الهوية المستقلة الواضحة الملامح وزمن الهوية الضائعة، أما في اللوحة الخامسة فسيتحضر صاحبه عيسى بن هشام، يعيده إلى الحياة في بئر وأرض الأعراب. وأما في اللوحتين الثالثة والسابعة فيعرفنا بمحمد عربي محمدين في تحولاته، فهل أراد أن يرينا تقسيم الإنسان العربي وانشطاراته؟؟

وفي اللوحة المشهدية السادسة يقدم لنا الخليفة، إنه الخليفة المعاصر، أمير المؤمنين الحي، إنه يعود بنا إلى مرحلة تشكل فكرة الخلافة منذ ظهور الإسلام، وكيف بُنيَ سورٌ حول كتاب الله ثم تولى وعاظ السلاطين شرحه وتأويله، ثم كيف أوجدوا فكرة الخلافة المتوارثة حيث أخذ هذا الخليفة كلّ ما أبدعه سابقه من بطش وظلم ثم أضاف إليه ما استطاع ابتكاره من أساليب. وهكذا حتى وصلنا إلى القرن العشرين " ومازال الدم طرياً ومازال الكَرَمُ حاتمياً "حيث من أخلاق الضيافة عند العرب ما تراه لا ما تسمعه"[2].

فهو ((يعني القوَّة، يعني الحرية، يعني الرقاب الخاضعة لك، كلُّ كرامة يمكنك أن تتخخها بالمال، كلّ نهد ناهد يمكنك أن تطأه بالمال، كل عقل جبار يمكن أن تنزع جبروته بالمال...))[3].

---

[1]– ينظر، حسن، محمود حماد: تداخل النصوص في الرواية العربيَّة، دراسات أدبيّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت، ص59–60.

[2]– الراهب، د. هاني : رسمت خطاً في الرمال، ط1 دار الكنوز الأدبية بيروت 1999 ،ص118.

[3]– المصدر السابق، ص125.

الخليفة إذن هو هذا الأعرابي، الشجرة الوحيدة التي تموت خارج الصحراء لذلك ((لا يستطيع الخليفة أن يمكث طويلاً في القرن العشرين، هو والماء ضدان، هو والتراب ضدان، لولا أنْ انقطع المطر ومات الشجر لما تكوَّن الأعرابي ولا النفط))[1].

إن عبارة: هو والماء ضدان. توحي بأنه هو والحياة ضدان، لأن الماء أساس كلّ حياة وهذه سمة ظاهرة في كل أفعاله.

إن ملامح الهوية تستقى هنا من الماضي البعيد من القرون الماضي، وبذلك يبدو الزمان زمانين : زمان يقاس بالأيام والأشهر والسنوات، وزمان يقاس بالوعي والحضور والفاعلية،

أما اللوحة الثامنة فهي مخصصة لصلوات سبع للرئيس فكس، وهي صلوات محددة الزمان إنها أقرب إلى الوثائق الرسميّة والتصريحات التي أدلى بها الرئيس الأمريكي بوش بين الخامس من آب عام 1990 وحتى السابع عشر من شباط 1991، وفيها تتكشف كل الأمور التي سعى مؤرخون كثيرون إلى إبقائها مستورة، إنها اعترافات تظهر الهدف الحقيقي لكل ما قامت به الولايات المتحدة قبل، وفي أثناء، وبعد احتلال الكويت من قبل جيش صدام حسين، وهو يربط كل ما فعله بالإرادة الإلهيَّة حين يعلن أنه يشنُّ حرباً مقدسة، ولكنه يعود ليذكر كيف تمَّ التخطيط لسرقة كلّ أموال النفط بطرائق متعددة.

هكذا يبدو واضحاً نمط البناء الخاص الذي شكل الهيكل الأساس للرواية، حيث يوجد فيها مزيج من التراث الشعبي مع الواقع الاجتماعي، مع ثقافة الراوي وعصره، والتي تنعكس جميعاً في مستوى الكتابة، وفيها (في الرواية) يرسم الكاتب تراجيديا الواقع العربي وسط عالم يتفكك ويتقوض، وهو يستخدم خيالاً خلاقاً خارقاً فقد استطاع توظيف الفنتازيا توظيفاً دقيقاً لتكون خاضعة لعمل عقلي منظم شيّد من خلاله البناء الروائي المحكم والمتنامي حيث تتداخل العوالم الحكائية وتتداخل الشخصيات أيضاً[2].

لقد استعان الكاتب بالتراث ليستحضر شخصيات منه ثم ألبسها ثوب المعاصرة ليحملها أفكاره الثائرة على الواقع، ولا سيما بعضها أتى من "ألف ليلة وليلة" الرواية الزاخرة بالشخصيات الرمزية: منها شخصيتا شهريار وشهرزاد، وقد ظهرا كشخصيتين رئيستين في الرواية.

ففي الفصل الرابع (ألف بترو ليلة وليلة من شهرزاد) يستحضر شهريار و شهرزاد ويدير الكاتب حواراً بينهما، حيث شهرزاد تمثل الراوية المتحدثة بضمير المتكلم ((ألف ليلة وليلة وأنا أرتجل قصصي لكي أرتجل وجودي في شريان الفن، أحتفظ لي بشريان الحياة... غرق شهريار في سبات عميق، ونام سنين وسنين... لم يكن موتاً وإنما نومٌ... سقطت بغداد تحت التتار وانجرفت...)) [3].

لقد عمد الكاتب إلى تقديم الملك شهريار على لسان شهرزاد بأنه نام دهراً منذ أيام الدولة العباسيَّة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو بذلك يكون قد وصل الماضي بالحاضر، إن شهريار هنا رمز للحاكم العربي الذي ينام في سبات عميق على حين تتوالى الشبكات من حوله.

إن شهرزاد في رواية "رسمت خطاً في الرمال" مختلفة عن شهرزاد في حكايات ألف ليلة وليلة، إنها هنا منسجمة مع ما يحيط بها من ظروف اجتماعية وسياسيَّة وتاريخيَّة، هي في الرواية ترصد لعبة طرفاها الشعب والسلطة، وهي تسرد

---

[1] – المصدرالسابق، ص130.

[2] – ينظر: العقباني، علي: هاني الراهب الكاتب المجدد الذي اختار هويّة المثقف الإشكالي، مجلة نزوى، العدد السابع والثلاثون، 2009.

[3] – الراهب، د. هاني: رسمت خطاً في الرمال، ص41.

حكايتها الجديدة مستندة إلى التداخل السحري العجيب بين الواقع الحقيقي والحكاية العجائبيَّة، أو لنقل الفنتازي والتراث وبذلك يسعى السرد إلى ((التعبير عن واقع وصل إلى أقصى درجات اللامعقول والعجيب))[1].

شهرزاد رغم حياتها الجديدة حافظت على روحها التي تحب الحياة وهي ترفض أن تعد نفسها ابنة العصر ترفض أن تكون ابنة الديرة وابنة الزمن الرديء زمن النفط والحروب ((قلت: أنا لن أكتب عن الحرب سأكتب عن الفرح والحب والجمال وفن (....) جاءكم النفط فجاءكم هادم اللذات ومفرق الجماعات))[2] وهي تتمسك بهويتها الأساس التي ارتبطت بها منذ وجدت في ألف ليلة وليلة، هي الأنثى التي تحلم بإنقاذ بنات جنسها من حماقة الملك، ولكنها في هذه الرواية تحلم أن تخلص الإنسان العربي من مصير يكاد يكون محتوماً..

ها هي ذي تتحدث عن صدمتها الأولى بشهريار الجديد الذي التقى الخليفة ومكث في ضيافته ثلاثة أيام وعاد مبهوراً بالتكنولوجيا التي شاهدها عند السيد نرد فكس ثم ((قبل شهريار تعيينه أميراً للبصاصين والمطوعين، وتربع على عرش الأجهزة التي تدار بأزرار الكهرباء. سحرت الأجهزة شهريار وجعلته، ليس أميراً على بشرٍ نسميهم المطوعين بل أميراً على ما يشبه العفاريت والجن الذين كنت أحكي له حكاياتهم والذين عاش معهم فترة سباته، وكلما فات يوم تحسنت الأجهزة فتحسنت روحه، إلى أن رأى نفسه ملكاً من جديد))[3].

أما بلقيس فتروي حكايتها منذ بدأ سدّ مأرب يعاني خطر الانهيار بسبب القوارض وبعد حملة المكافحة تمت إبادة هذه القوارض ((ولكن سد مأرب انهار بعد مئة عام، كل ذلك الخير ضاع وتبدد لأن فأراً واحداً بقي في مكمن حصين فلم تطله جهودنا، وبعد أن انفض الناس من حول السور.... انطلق هو على هواه وأخذ يقضم السدّ))[4].

وهكذا يمكن لفأر واحد أن يهدم سداً. وبلقيس تؤكد هويتها بعد أن تحدثنا عن جدها ((جدي ذلك البدوي الهائم في ملكوته المترامي الأطراف لم يشعر يوماً بحاجته إلى شاهد إثبات أنه من هنا...والذي تنقل بين مأرب وبغداد وباديةِ الشام وقصور الأنباط المهجورة عند طرف البحر الأحمر.. لن يقبل أن يكون دكنجياً ولن يغادر بحور الرمال اللغزاء إلى بحر الماء الشبيهة بالسجن.. ويوم كانت الصحراء بلا اسم كان جدي ملكاً عليها وخليفة))[5].

هي الأرض إذن تعطي الخصوصية وتحدد الملامح وتشكل الهويَّة، هكذا كانت في الماضي أما الآن فهي تنتمي إلى الناس العاديين الذين لا يملكون تصاريح، ففقدوا هوياتهم وأصبح اسمهم "بدون" ((بدون هوية (مدنية) وبدون جواز سفر وبدون أية حقوق مدنية من النوع الذي تمتلكه أقلية من سكان نفيطيّة، هؤلاء الذين هزوا رأسهم بالقبول يوم هزَّ جدي رأسه بالرفض))[6]. إنها إشارة واضحة إلى أن هوية البـ "دون" تمتلك أصالة ووعياً وحرية وخصوصية أكثر مما تحمله أية جنسية (هوية) أخرى لأنها تمثل هوية من حافظ على حريته وانتمائه وتاريخه.

ويوم وضعت المنظار على عينها ضاعت الحقيقة وتحولت أفواج الـ "بدون" التي تسرح حول الصحراء وتسوق قطعانها إلى شيء آخر مختلف صارت الأرض شعاباً خضراء وقصراً أخضر[7]. ترى هل أراد الكاتب هنا أن يقول : إن الواقع

---

[1]– وتار، د. محمد رياض. توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق،2002 ، ص44.

[2]– الراهب، د. هاني: رسمت خطاً في الرمال، ص79.

[3]– المرجع السابق، ص51.

[4]–المرجع السابق، ص223.

[5]– المرجع السابق ، ص226.

[6]– الراهب، د.هاني: رسمت خطا في الرمال، ص226.

[7]– المرجع السابق، ص226.

ما تبدل عبر العصور فنحن ما زلنا نعيش الماضي البعيد ، ولكن التكنولوجيا الحديثة موهت الحقيقة، وعدلت من إحساسنا بها.

وهؤلاء الـ "بدون" أثبتوا أنهم الأكثر تمسكاً بهويتهم الوطنيّة حتى التصقت بقاياهم على الحائط الخلفي[1].

أما الخليفة فإن هويته لا تأتي من أي انتماء سوى أنه خليفة وانتهى الأمر، لذلك كان من الطبيعي أن يكون جوابه عن السؤال:

((من أنت أيها الإنسان؟ فرد علي بلا اكتراث "أنا الخليفة"، قلت بلهفةٍ: "أنت عمر بن الخطاب؟" نظر إليَّ وأصابعه معقودة بين ركبتيه. قلت: "أو لعلك عليّ بن أبي طالب (...) لا هذا ولا ذاك، قلت له بامتعاض: "أليس لك اسم؟" فزمجر مثل من ناء بحمل ثقيل: "لي ألف اسم منذ القرن السابع وهم يسموننني))[2].

هل بقي الخليفة خارج إطار الزمان والمكان وليس له أية ملامح أو بصمات خاصة، لقد سقطت ملامح هويته العربيّة والإسلامية فلم يبق منه سوى الاسم، ولذلك عندما اختلفوا على الحدود جاء الميجر فكس ووبخهم... ((امتشق قلماً وفتق ورقة، ورسم خطاً من البحر إلى الصحراء فإلى الصحراء فإلى البحر قال لتكن هذه نفيطية سين فكانت، (وقال) لتكن هذه نفيطية جيم فكانت. قال لتكن النفيطيات فكانت))[3].وهكذا يبدو الميجر فكس ممتلكاً القدرة الخلاقة حيث يكفي أن يريد حتى يكون إرادته واقعاً.

ومن الشخصيات اللافتة تبدو شخصيَّة /عربي محمدين/ واختيار الاسم ليس عبثاً عند هاني الراهب. إنه الخانع، الخاضع، الساكن، وها هو ينصح زميله عيسى ((إذا لم تتعلم التطنيش مثلي، سيأكلك حيوان من داخلك ذات يوم، اقبض راتبك كل شهر واسكت))[4]. لقد وضع كل مبادئه جانباً بحيث داستها المادة يقول: ((في النفطيات لا تخض معركة مبادئ قط، هنا لا أحد تهزمه المبادئ إلّا إذا اعتنقها، هنا كل شيء مصلحة (...) إذا قبلت أن تشتغل في نفيطية، فيجب أن تقبل بأخلاقياتها))[5]

كيف لا تضيع ملامح الهوية الكبرى وتذوب في أرض يلفها الاغتراب بكلّ أشكاله، حيث لا يجد المرء جدوى من بحثه المستمر عن ذاته وعن الآخر لقد أغرق النفط كل ما يمكن أن يغذي الروح، تقول شهرزاد:" بعد مئات السنين يطلع عليّ النفط فتغرق فطرتي(...)أغترب عن عصري ولغتي...تنطفئ الليالي العربية، وتتوهج الليالي النفطية "([6]) ترى هل هل هي موازنة بين هويتين: الهوية العربية، والهوية النفطية؟ هل هي العلاقة الأزلية بين الروح والمادة؟ هل هو التناسب الطردي بينهما حيث إنه كلما زاد الغنى المادي ازدادت الروح خواء؟ كيف يمكن للنفط أن يؤثر في كل شيء ويقف عاجزاً عن إحداث أي تطور في العقل العربي الذي سلّم للآخر الذي يمتلك الحلول ف " كلّ شيء له دواء عند رهط الميجر فكس.. كلّ هذه المخترعات من عندهم، الله سبحانه سخر لهم التكنولوجيا ، وسخر لنا النفط لنشتري التكنولوجيا "([7]) أي إن العربي حين امتلك النفط فقد كلّ شيء حتى أحلامه، ولم يبق له إلا أن يبيع روحه للشيطان ،

---

[1] – المرجع السابق، ص249.

[2] – المرجع السابق، ص225–226.

[3] – المرجع السابق ، ص18.

[4] – الراهب، د. هاني: رسمت خطاً في الرمال ، ص96.

[5] – المرجع السابق، ص102.

[6] - المرجع السابق، ص76.

[7] - المرجع السابق، ص 59

وربما يكون قد باعها أولاً فخسر بعد ذلك كل شيء، إنه فاوست العربي الذي باع روحه للبترودولار.أما شخصية عيسى بن هشام فتبدو مختلفة حيث يرى أن همّه الوحيد أن يشعر بإنسانيته ووجوده " يا جماعة ، أنا لا أريد مالاً أريد فقط رشّة حبّ على قلبي، ابتسامة من حنان . حديثاً من عقل إلى عقل.." ([1])،

ويعود مرّة ثانية ليؤكد سعيه هذا فيبين أنه يريد فقط أن يشبع من الطعام وهو موفور الكرامة والاحترام، ولكن بحثه هذا كان عبثياً ، فحتى أفراد أسرته ما استطاعوا أن يخلقوا لديه إحساساً كهذا ، لقد انصهروا في المجتمع الاستهلاكي الغارق في الملذات ، وبذلك تكون كلمات دهريار دقيقة جداً " أتعرف ماهية روحك إذا كنت ابن الصحراء؟ في الصحراء لا تمتزج حبتا رمل أبداً ، ملايين السنين تبقى الحبة بجوار الحبة وتبقيان حبتين ، وهكذا روح ابن الصحراء دائماً وحدها ، زجها بين ملايين الأرواح تبقى وحيدة ، التراب يمتزج ، ونحن نظلّ رولاً ، نحن العرب يستحيل أن تجعل منا أمة واحدة "([2]).

هل يمكن أن تكون هناك غربة أكثر من ذلك؟ الغريب أنهم يتمسكون بهوية الضياع والتخلف هذه وهم سعداء بها ويسعى حكامهم جاهدين للإبقاء عليها، يقول الخليفة: " أفقزاد يا عزيزتي، نحن سعداء في تخلفنا، نحن نعشق تخلفنا، نحن آمنون في تخلفنا ، تريدين تفتيح عيون رعيتي على العدالة الجميلة؟ لن يبقى شيء من الإسلام الذي أحكم به ، يجب أن يفهموا أن الإسلام يعني قطع الأيدي وقطع الأعناق"([3]) .

إن القراءة المتأنية للرواية تظهر بوضوح أن الهوية المستقرة الناضجة المحددة المعالم ، والتي تجسد الروح الإنسانية لا تجد مكاناً لها في شرقنا العربي حيث يغيب العقل وتضيع المشاعر والأحاسيس وتتحدد ملامح هوية دينية مفصلة على مقاس الحاكم الذي ما عاد يمتلك من السلطة شيئاً غير الاسم

ولكن كلام الخليفة هذا لن يجد صدى لدى أفقزاد القادمة من كوكب أندروميد حيث لا راع ولا خلافات ولا ديانات ولا أنبياء، يؤمنون بالله وكفى من دون طقوس ولا فرائض، أفقزاد التي تتشكل من مكونات نترونية وفوتونية تعيش خارج حدود النفطيات، إنها ترفض وتردّ: " نحن نؤمن بالخلقة، نسبح لله لحظة ولادتنا، والخير والشرّ ليسا من عالمنا، نحن لا نختصم على شيء لذلك لسنا محتاجين للأديان ولا حتى للنظم الأخلاقية، ليس لدينا شيء نسميه خيراً أو حلالاً، ولا شيء نسميه شراً أو حراماً، عالمنا فيه ثلاثة مكونات : الحرية ،الجمال، الحب، وهذه تعطينا السعادة "([4]).

أما شخصية عيسى بن هشام فهي أيضاً أنموذج مختلف، هي شخصية مكونة من حروف وليست من لحم ودم إنها تمتلك مكونات واضحة ثابتة لهوية إنسانية واعية وهو يتمسك بهويته هذه على الرغم من إحساسه بالغربة وسط قوم فقدوا كل أشكال الانتماء، " عندما خلقني بديع الزمان من كلمات وأصوات كنت هكذا أحاسيس ومشاعر وقدرة وحركة ، يومها لم يكن لدي لحم ودم يربكاني "([5]).

الأمر اللافت للانتباه هو المواجهة التي تحصل بين عربي محمدين وبين بطل الرواية الرئيس عيسى بن هشام ، وهما أستاذان جامعيان يدرّسان في جامعة إحدى النفيطيات فالدكتور عربي (وللاسم دلالته) هو فاوست العربي الذي باع روحه للشيطان ، أما زميله فلم يتخل عن قناعاته، ولم يرضخ ولم يستسلم ولذلك أُنهي عقده في نهاية الفصل الدراسي، يبدو أن اللحم والدم يجبران الإنسان على الاستسلام ووضع المبادئ جانباً حين يصبح الرغيف هو الهمّ الأكبر.

---

[1] - المرجع السابق ص 100
[2] - المرجع السابق، ص 132
[3] الراهب، د.هاني: رسمت خطا في الرمال، ص 262
[4] المرجع السابق، ص 281
[5] المرجع السابق، 106

إن الحبكة السردية في الرواية تمثل شكلاً من أشكال الدراما التراجيدية والفنتازية حيث يتداخل فيها المتخيل بالواقعي ، المنطقي بغير المنطقي وقد حاول هاني الراهب أن يقدم للمتلقين تصوراته وقناعاته ورؤاه الأيديولوجية لإظهار حجم التناقضات التي أوصلت العرب إلى هذا التشتت والتناحر والصراعات السياسية التي لا نهاية لها والتي دفعت بعضهم لاستجداء التدخلات الخارجية. من هنا ليس غريباً أن يكتب على مدخل المدينة " ادخلوها بجحيم صاغرين" هو الإحساس الذي ينتاب كثيرين ممن دفعتهم الحاجة المادية للعمل في تلك النفيطيات، فسكنتهم الصحراء وصار لحمهم رملاً.

وهكذا يمكن أن نرى تشظي الهوية العربية إلى هويات ثانوية حيث يغيب الانتماء القومي الذي يجمعهم وذلك بعد إثارة مشاعر قومية لأقليات كانت قد انصهرت في النسيج القومي منذ عصور، ويضعف الانتماء الفكري الذي يوحدهم ، كل ما يمتلكونه هو رابط ديني فاقد الجوهر الروحي للإسلام، مفصّل على مقاس الحكام ، أما المكان فهو الصحراء التي رُكبت فيها مدن الملح وفق تعبير الروائي عبد الرحمن منيف.

والكاتب إذ يعرض كل هذا الضياع وكل هذا التشتت في الولاء والانتماء إنما يرينا ذواتنا وقد تقاسمتنا العصبيات و استهلكتنا الصراعات التي خلقها المستعمرون الجدد، ففقدنا كل مقومات الهوية الحقيقية التي تحددت ملامحها عبر العصور، وعندما ينهي الرواية بعبارة "النهاية مؤقتاً" فإن في ذلك إشارة إما إلى جزء ثان يتابع فيه ما كان قد بدأه، وإما أنه يترك للشعب مساحة كافية لاختيار هويته بعد أن مرّر أمام ناظريه شريط الحقيقة.

References

- Abu Azza, Muhammad. *Cultural Narratives: from Identity Policy to Difference Policy*. First edition. Rubat, Dar al-Aman: Difaf Publishing. (2014).
- Abu Matouk, Muhammad. *Text Revelations and Character Inconsistencies*. The Cultural Attachment; published Weekly every Tuesday. Damascus, al-Thawra Newspaper. Issue 703. August 3rd, 2010.
- Ashhabon, Abdul Malek. *Thresholds of Writing in Arabic Narrative*. First edition. Syria, Lattakia: Dar al-Hiwar for Publishing. 2009.
- Jihami, Dr. Gerar. *Encylopaedia of Philosophical Terms with Arabs*. First edition. Lebanon, Beirut, 1998.
- Hussein, Muhammad Hammad. Intertextuality in the Arabic Novel. First edition. Cairo, the Egyptian Public Book Agency. 1998..
- Hammoud, Dr. Majeda. *Problem of Ego and the Other: Archetypes of Arabic Novels*. Alam al-Marefa. Kuweit National Council for Culture, Arts and Literatures. Issue 398. March 2013.
- Khartash, Faisal. *Search for a Utopia*. The Cultural Attachment; published Weekly every Tuesday. Damascus, al-Thawra Newspaper. Issue 703. August 3rd, 2010.
- Raheb, Dr. Hani al-,. *I Have Drawn a Line in the Sands*. First edition. Beirut, Dar al-Kunuz al-Adabyieh. 1999.
- Rikor, Poll. *Memory, History & Forgetfulness*. First edition. Trans. Jesef Zinati. Al-Muttahida, Dar al-Kitab al-Jadeed. 2009.
- Zumkhashri, Jarralla Muhammad bin Umer al-,. *Basics of Rhetorics*. Beirut, Dar al-Fikr for Publishing. 2000.
- Safer, Bassam and Ayman al-Hasan. *A Dialogue with Hani al-Raheb*. Socialist Studies Magazine. A special issue on contemporary Syrian narrative. Issues 182-183. 2000.

Shabibi, Jameel. Pro*blem of Identity in Contemporary Iraqi Narrative*. The Educated Magazine. Issue 2596. April 6th, 2019.
Saleh, Dr. Nidal al-,. *The Mythical Digression in the Arabic Novel*. Arab Writers' Syndicate. Damascus 2001..
Aqbani, Ali al-,. *Hani al-Raheb the Rejuvenator who Chose the Identity of the Prolematic Educated*. Nazwa Magazine. Issue 37. 2009.
Kasem, Seiza. Collapse of Novel: *A Comparative Study of the Najeeb Mahfouz's Trilogy*. Cairo: Family Library. 2004.
Murtadh, Abdul-Malek. *Within the Theory of Contemporary Novel*. Alam al-Marefa. Kuweit National Council for Culture, Arts and Literatures. 1998.
Harlempus and Hallborne. *Socioloy of Culture and Identity*. Trans. Hatim Hmeid Muhsen. Dar Kewan for Publishing.
Wattar, Muhammad Riyad. *Manipulating Legacy in the Contemporary Arabic Novel*. Arab Writers' Syndicate. Damascus. 2002.